البعد الحضاري في أزمة الأمن القومي العربي
نحو رؤية جديدة للأمن القومي العربي
في ضوء المتغيرات والتحديات الإقليمية والعالمية المعاصرة

عالمياً دخل مصطلح الأمن القومي بمخاض طويل لتحديد مفهومه ومدلولاته، حيث بدأ مع إرساء مبدأ سيادة الدول في معاهدة ويستفيليا عام 1648، ومن ثم مع ازدهار مفهوم القومية مع الثورة الفرنسية عام 1789، حتى تم تحديد مفاهيم ومدلولات الأمن القومي مع قيام مجلس للأمن القومي الأمريكي عام 1947، الذي اعتمد مفهوم الأمن القومي بمنظور يمكن قياسه بحجم القوة العسكرية القادرة على حماية أمن الدولة من أي اعتداء خارجي...

أما على المستوى العربي فقد ورد ذكر مصطلح الأمن القومي العربي لأول مرة في ميثاق تأسيس الجامعة العربية عام 1945 على أنه "مسألة الضمان الجماعي ضد أي عدوان يقع على أي عضو في الجامعة سواء أكان من دولة خارجية أو دولة عضو في الجامعة". وتحت بند الضمان الجماعي هذا أكد الميثاق في عام 1950 على مفهوم جديد للأمن القومي العربي في "معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي بين دول الجامعة العربية"، بإضافة قوة الاقتصاد كقوة ناعمة في البعد الأمني العربي.

ومع تطور الأحداث ومفاهيم التنمية، تتالت الوثائق العربية التي شملت مدلولات أكثر شمولية في مفهوم الضمان الجماعي للأمن القومي العربي بدءً من وثيقة قمة عَمّان الاقتصادية سنة 1980 بعنوان "استراتيجية العمل الاقتصادي العربي المشترك"، ثم قرار قمة القاهرة عام 1996 حول الأمن القومي العربي بمفهوم أكثر شمولية لحماية مصالح الأمة *(إنشاء محكمة العدل العربية، وميثاق الشرف للأمن والتعاون العربي، وآلية جامعة الدول العربية للوقاية من النزاعات وإدارتها وتسويتها)*؛ وكان آخر هذه القرارات هو قرار قمة شرم الشيخ عام 2015 بتشكيل "قوة عربية موحدة"، والذي تم توقيع بروتوكول إنشائها، دون أن يتم إنشائها حتى يومنا هذا.

على أرض الواقع، وعلى المستوى الرسمي، لم يتمكن العرب، ممثلين بالجامعة العربية، من تفعيل ما صدر عنها من مواثيق ومعاهدات معبرة عن مفهوم الأمن القومي العربي، رغم كل الأخطار التي واجهتها الأمة منذ بدايات القرن العشرين وحتى اليوم، بدءً باحتلال فلسطين، مروراً بالحروب العربية الإسرائيلية التي كانت تقضم فيها اسرائيل في كل مرة المزيد من الأراضي الفلسطينية والعربية، وانتهاءً بما تمر به المنطقة، منذ العقد الأخير من القرن وبالتحديد منذ ما بعد الحرب

الباردة، من خلافات وصراعات عربية وتدخلات إقليمية ودولية مباشرة وغير مباشرة هي الأعلى خطراً وتهديداً وتحدياً لمستقبل الأمة ووجودها.

فهل يتمكن الخبراء والمثقفون العرب من صياغة رؤية جادة وجديدة ومجدية لحماية الأمن القومي العربي؟

سنحاول هنا صياغة ورقة أولية حول الأمن القومي العربي، وتحدياته الحضارية، في خطوة أولى نحو البحث عن رؤية عربية جامعة في هذا الشأن.

تطور مفهوم الأمن القومي

يمكن اعتبار المفهوم الذي وضعه وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، روبرت مكنمارا حول مفهوم الأمن أحد أهم التعريفات والأكثر مرونة مع متغيرات العصر... قال "إن الأمن يعني التطور والتنمية، سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية، في ظِلّ حماية مضمونة"... و"إن الأمن الحقيقي للدولة ينبُع من معرفتها العميقة للمصادر التي تُهدِّد مختلف قدراتها ومواجهتها؛ لإعطاء الفرصة لتنمية تلك القدرات تنميةً حقيقية في كافة المجالات، سواء في الحاضر أو المستقل"[i]. ويتميز هذا التعريف بربط مفهوم الأمن بكافة أبعاد التنمية الشاملة على المستوى الوطني.

أما الدكتور زكريا حسين، أستاذ الدراسات الإستراتيجية، والمدير الأسبق لأكاديمية ناصر العسكرية في مصر، فقد تناول تعريفاً للأمن القومي العربي وأبعاده الرئيسية بأنه "قدرة الأمة العربية على الدفاع عن أمنها وحقوقها وصياغة استقلالها وسيادتها على أراضيها، وتنمية القدرات والإمكانيات العربية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، مستندة إلى القدرة العسكرية والدبلوماسية، آخذة في الاعتبار الاحتياجات الأمنية الوطنية لكل دولة، والإمكانات المتاحة، والمتغيرات الداخلية والإقليمية والدولية، والتي تؤثر على الأمن القومي العربي"[ii].

في هذا التعريف تم تعزيز البعد السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي في مفهوم الأمن القومي العربي وإسناده بالبعد العسكري والدبلوماسي، بجانب الاحتياجات الأمنية الوطنية التي ترتبط مباشرة بالتنمية، مما يعطي هذا التعريف بعضاً من الشمولية في تطوير مفهوم الأمن القومي على خطى التطوير العالمي للمفهوم، ولكن، لكي لا يبقى المفهوم نظرياً، يتطلب تحديده بأدوات القياس الاستراتيجية اللازمة لدراسة جدوى ومعدلات نجاح المفهوم عند التطبيق.

الأمن القومي العربي في واقع دولي جديد

في ظل المتغيرات الحديثة والمستمرة دولياً وإقليمياً، على مستوى القطاعات العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، بات من الأهمية العودة إلى تحديد مفهوم

ومدلولات جديدة للأمن القومي، في تعريف شامل يأخذ بعين الاعتبار المحددات الجديدة في تنوع التهديدات والأخطار، وتعدد وتنوع عناصر القوى الاستراتيجية في الحفاظ على الأمن الوطني والقومي.

أحد أهم المدلولات الجديدة هو أن الثورة التكنولوجية والرقمية والسيبرانية والمعلوماتية جعلت لمفهوم الأمن القومي أبعاداً أكثر تعقيداً وشمولية، سواء على المستوى التقليدي المتمثل في القوة العسكرية والدبلوماسية والسياسية والاقتصادية، أو على مستوى أبعاده غير التقليدية الجديدة المتمثلة في كافة القوى الصلبة والقوى الناعمة النوعية، الذكية والاستراتيجية، التي تتفاوت قدراتها ما بين تجنّب وقوع الحروب المباشرة، وبين توجيه دفة الصراع بالترهيب والترغيب والتجويع والضغوط التفاوضية والإعلامية والحروب المعلوماتية والتضليل، إلى الحروب السيبرانية والحروب بالوكالة، باستراتيجيات ومنهجيات فكرية وعلمية حديثة.

وفي ظل هذه التحولات الدولية المستمرة منذ أكثر من ثلاثة عقود، والمتسارعة بسرعة تدفق المعلومات والتطور العلمي والتقني نتساءل، ما هي رؤية العرب لأمنهم القومي؟ وما هو موقع العرب مجتمعين أو فرادا في التخطيط التنموي، وامتلاك القوة التقليدية والحديثة لحماية الأمن القومي العربي؟

الأمن القومي العربي في القرن الحادي والعشرين- "الحرب على الإرهاب"

بدأ القرن الجديد بأحداث 11 سبتمبر 2001 وما تبعها مباشرة بوصم العرب بالإرهاب، وإعلان الحرب على الإرهاب، فكانت هي الحرب النفسية الأولى، التي حققت أهدافها في التدمير المادي والتحطيم المعنوي والتهديد المباشر لكل دولة عربية تسعى لامتلاك بعض من نواصي القوة.

اعتمدت استراتيجية الحرب على الإرهاب على منظومة "الحرب بالوكالة" و"مخاض الفوضى الخلّاقة"، كما اعتمدت على القوة الناعمة كسلاح رئيسي نجح في بث الرعب وترهيب الشعوب والحكومات بـ"الحرب الاستباقية على الدول المارقة"، و"الحرب الوقائية لحماية الأمن القومي الأمريكي"، وقائمة "الدول الفاشلة" و"قائمة الأنظمة الإرهابية" وغيرها من المسميات التي استهدفت دول العالم الثالث، لتثبت أحداث ما بعد 11 سبتمر إن ذلك الحدث ما كان إلا صفارة انطلاق مشروع الشرق الأوسط الجديد، وحرب الاستعمار الجديد، والصراع حول النظام الدولي الجديد... وكان موعد انطلاق المارد الأمريكي في المواجهة المحتدمة مع القطب الصيني، التي مهدت لها حروب التسعينيات في دول أوروبا الشرقية، والثورات الملونة التي انطلقت شرارتها بعد ذلك في بدايات القرن الحادي والعشرين في مختلف أرجاء العالم.

ومع بداية القرن كان العرب على موعد مع حروب السيطرة على منابع النفط العربية الثرية، وتصفية مراكز العلم والثقافة والقدرات العسكرية والاقتصادية والسياسية العربية، وعمليات هدم منهجية لانجازات العرب التنموية، بهدف العودة بالمنطقة إلى بيئة قابلة للاستعمار... فكانت البداية في سنة 2003 بغزو واحتلال العراق وتصفيته كدولة قوية عسكرياً واقتصادياً وعلمياً.

وكانت الحرب على العراق الأكثر ترهيباً للمعنويات العربية، إذ حققت انتصاراً كبيراً في سياق التضليل الإعلامي وحرب المعلومات التي أصابت أهدافها بدقة عالية، وروّجت للقوة الأمريكية الباطشة كقوة عالمية أولى لا تُقهر، وإلى لغة القوة كلغة وحيدة للتفاهم الدولي.

وبتحطيم العراق كقوة عربية سقط أهم أركان التوازن الأمني الإقليمي في الشرق الأوسط، وترك فراغاً أمنياً لم تملأه دولة عربية أخرى، بل فتح هذا الفراغ الاستراتيجي أبواب المنطقة أمام الاستعمار الجديد، وأمام أطماع دول الجوار الإقليمي المتحفزة للهيمنة على المنطقة، مما ساهم في المزيد من التدهور الأمني.

نجح سلاح ترهيب الشعوب والأنظمة في نشر الفوضى في مجتمعات عربية كبرى، بدءً بفوضى الفساد المالي والإداري والسياسي والأمني، مما رفع من معدلات الفقر والهجرة هرباً من جحيم العصابات الإرهابية التي نبتت كالفطر في الأراضي العربية بعد 11 سبتمبر، ومن الميليشيات الحزبية المسلحة التي نشأت واصبحت دولاً داخل دول عربية كانت هي الأكثر أمناً وتقدماً وثراءً وخلواً من الفساد قبل ذلك التاريخ... ليبدأ عصر جديد بعد غزو واحتلال العراق.

واستمرت الحروب الناعمة في تنفيذ مشروع إعادة صياغة "الشرق الأوسط الجديد"، من خلال نشر الفوضى وتحطيم العروش والجيوش العربية التي انشغلت في مواجهاتها الداخلية وفي الحرب على الإرهاب، لتسقط دول عربية رئيسية، الواحدة تلو الأخرى، في أفخاخ ثورية ناعمة استغل فيها سلاح "حالة عدم رضا الشعوب"، وهي حالة تتسم بالحق ولكن استُثمرت لغايات باطلة كسلاح نافذ اختبأ خلف شعارات ومسميات كسبت القلوب والعقول، وزادت من الفوضى والفساد الذي صار نمطاً حياتياً طبيعياً في مجتمعات عربية كبرى. ولازالت المنطقة تعيش تفاعلاتها وتطوراتها الخطيرة التي تدار وتوجه إجمالاً بكافة أنواع القوى الناعمة من الخارج.

سلاح القوة الناعمة- الإعلام والاتصال والتكنولوجيا

يعرّف **جوزيف ناي**، واضع مفهوم القوة الناعمة، بأنها "القوة القادرة على الجذب والضم دون إكراه"[iii]. وقد طُبّق هذا المفهوم على المستوى السياسي منذ تسعينيات القرن الماضي، وأُستخدم بكثافة في التأثير على الرأي العام المحلي والدولي عن طريق قنوات غير محايدة أو مشبوهة، سعت وتسعى إلى الضغط بواسطة نشر تقارير موجهة صادرة عن وسائل الإعلام والمنظمات غير

الحكومية ومراكز البحوث والدراسات، وكذلك عبر الفن والأدب والدراما والسينما.[iv]

يعمل الإعلام والاتصال على مفهوم "تأطير العقل"، والذي يعتَمِد على قيام الرسائل، المنتَجة من قِبل وسائل الإعلام، بتنشيط آليات معالجة المعلومات التي تربط محتوى وصيغة الرسالة بالصور الذهنية الموجودة في العقل. ولأن وسائل الإعلام تُشكل المصدر الرئيسي للاتصال والمعلومات في المجتمع، فإن تأطير عقل الجمهور يتم إلى حدّ كبير عبر عمليات تقوم بها أساسا وسائل الإعلام، والقوة الناعمة.

وتعتبر القوة الناعمة من أهم الأسلحة استخداما في السياسة الدولية، وازدادت أهميتها مع ثورة المعلومات والانتشار الواسع لوسائل الاتصال الالكترونية وعلى رأسها شبكات التواصل الاجتماعي.

ويتفق معظم الباحثين في العلوم السياسية والعلوم العسكرية وعلوم الإعلام والاتصال على أن المعلومة الصادرة عن وسائل الإعلام، هي الرصاصة الأولى التي يمكن أن تؤدي إلى حرب شاملة، أو السبب الأول في التهدئة والمساهمة في توقيع معاهدة سلام دائمة. وتعتبر وسائل الإعلام والاتصال أيضا، "القوات الخاصة النفسية والدعائية" التي تُناور وتُعزّز صفوف الجيوش. كما أنه في أغلب الأحيان لا حاجة لجيوش على الأرض، في ظل وجود أسلحة إعلامية واتصالية، وقوة ناعمة، يمكن أن تحسم الحروب قبل بدايتها أصلا.

يعد سلاح الإعلام والاتصال والمعلومة نوع جديد من الأسلحة، ونوع جديد من النفوذ اللامادي ولكنه في بعض الأحيان أفتك من النفوذ المادي، لأن استخدام الأسلحة المادية يمكن تقنينها بسهولة، لكن استخدام سلاح الإعلام، أصبح يصعب تقنينه، نظرا لطبيعة مفهومه الزئبقي ولاحتمائه وراء مسألة حقوق الإنسان وحرية الرأي والتعبير.

ولأن فهم واستيعاب السياسة في القرن الحادي والعشرين لا يمكن فهمه بعقل قرون سابقة، فإن العقل العربي يجب أن يؤمن بأن القوة الناعمة تعد أحد أهم أبعاد ومدلولات الأمن القومي في هذا العصر، والتي صنعت منها الدول المتقدمة نهضتها منذ بدايات القرن العشرين؛ وإنه لا يمكن أن يواكب العرب التقدم في القرن الجديد، وأن يبنوا أمناً وطنياً أو قومياً، دون امتلاك هذا السلاح بكل قدراته العلمية والفكرية والتقنية الذكية.

الأمن القومي العربي والديمقراطية

للدراسات الأمنية علاقة استراتيجية بالعلوم والفلسفة الإنسانية والطبيعية، متمثلة بالمرتكزات الفكرية في العلوم السياسية والاستراتيجية والعلاقات الدولية والجيوسياسية والاجتماعية والأنثروبولوجية وعلوم الإعلام والاتصال والتاريخ والجغرافيا، إضافة إلى علوم الاقتصاد والتنمية بكل فروعها، لدراسة الظواهر الإستراتيجية، في الضعف والقوة، وأسباب ارتفاع معدلات الفقر

والأمراض والبطالة والفساد، وتدني مستويات التعليم والثقافة والوعي والإدراك وغيرها...

لربما تعد دراسات الأمن والديمقراطية من أهم الدراسات الفكرية والعلوم الإنسانية في شأن الأمن القومي العربي والبحث عن تفسير لظواهر العنف الإرهابي والراديكالي والتطرف وظواهر الحروب الطائفية والعرقية التي سادت منطقتنا منذ ما بعد الحرب الباردة، لتكون مدخلاً للبحث في ديناميكية الظاهرة وأسبابها ونتائجها وحلولها، وخصوصاً بعد أحداث 11 سبتمبر وربط الإرهاب بظاهرة قمع الحريات وانتهاكات حقوق الإنسان في البلاد العربية.

نحو رؤية فكرية للأمن القومي العربي

من هنا ننطلق نحو رؤية المعهد العالمي للتجديد العربي في صياغة رؤية فكرية علمية للأمن القومي العربي، لمواجهة التحدي الحضاري والوجودي الذي تخوضه الأمة أمام التحولات والمتغيرات الدولية الخطيرة التي تجتاح المنطقة والعالم؛ وليكون المفهوم الاستراتيجي للأمن الوطني والقومي هو البعد الرئيسي في عملية البحث الفكري عن أسباب فشل بناء دولٍ إدارية ومؤسسية عربية تعتمد منهجية تنموية حديثة، وقائمة على مرتكزات علمية سليمة تحمي الدولة من الانهيارات ومن التدخلات الخارجية، كما تحمي حقوق الأجيال الجديدة في الثروات وفي الاستقرار، وفي خططٍ استراتيجيةٍ تعتمد على دراسات مستقبلية علمية.

---

[i] - جوهرة الأمن"، روبرت ماكنمارا– ترجمة يونس شاهين، 1970/ الهيئة المصرية العامة للكتاب

[ii] - الأمن القومي Arab Defense | المنتدى العربي للدفاع والتسليح

[iii] - Joseph S. Nye Jr, Soft Power: The Means to Success in World Politics, Public Affairs, 2004

[iv] - دور سلاح الإعلام في النظام العالمي الجديد – الكاتبة العربية سميرة رجب - https://link.arabicrenewal.org/ss7